الإشكاليات الإبستمولوجية فى بنية العقل العربى وتداعياتها التربوية

أ.د. عبد المنعم محمد نافع

أستاذ أصول التربية

كلية التربية - جامعة الزقازيق

إن الأهمية المركزية فى الحياة العقلية هى للوعى ولإدراك الذات، وما يجعل بنية العقل محاقة بالصعوبات هو ارتباط الوعى بالذات الإنسانية، فالوعى ليس مجرد ظاهرة فرعية أو ثانوية بل هو كما أشار سيرل سبب كل عقم وخواء وإجداب يلحق بعلم النفس او فلسفة العقل أو بالعلوم المعرفية. ومن ثم فمنظومة الوعى هى الوجه المعبر عن بنية العقل.

ومن المعلوم أن المعرفة أساس السلوك، ومحور التعامل مع الحياة، وإنما تتم المعرفة ببصيرة العقل: خبرته ودلالته ، ولذلك نعيش زمانا يعد العقل فيه عنوان التحدى فى سباق التقدم العلمى والرقى الحضارى.

ولقد طالت فترات الانحطاط التاريخى الدالة على حالة العجز العربى فى التعامل مع ذاته وتنوع معطياته، ومازالت البدايات المتعثرة، والدروب المظلمة، والدعاوى المضللة والوسائل الملتبسة هى الشاهد على السلوك البادى والعقل الواعى.

ويكشف ذلك عن المسار الخاص بتطور (العقل - الوعى - الفكر) الثقافة العربية، ويعكس هذا المسار صورة شديدة التعقيد والالتباس تصادمت فيها النظم المعرفية، وتقاطعت فيها التصورات، وتبدلت الرؤى، وتلونت المرجعيات، وتشوهت المفاهيم، وتسطحت المناهج. فاختطلت الأوراق واختل الميزان. وارتبكت مشاهد الحاضر وخرائط المستقبل .

ولطالما بحّت الأصوات، وتجددت الدعوات، وتوالت الكتابات فى محاولة لتوصيف حالات الفشل المتوالية للمشروعات الحضارية، والكشف عن العوامل

الموضوعية والإشكاليات الذاتية التى أفضت إلى واقع الوعى العربى، فهل أزمة العقل العربى هى أزمة فى مكوناته؟ أم هى أزمة فى إضافاته؟ وإذا كانت دلالة العقل وعيه؛ فما أهم الخصائص التى تسم الوعى العربى؟

وإذا كانت خصائص الوعى العربى فى تفاعلها مع التحديات المتجددة والمتغيرات المتنوعة تحدد المناخ السائد الذى ينعكس على نظم وأساليب التربية العربية فما أهم خصائص الوعى الذى تنتجه التربية العربية؟ وبالإضافة إلى حالة الوعى المنتج ما أكثر التداعيات التربوية على الساحة العربية ارتباطا بالمحركات الذهنية للعقلية العربية؟.

"لماذا تختلف العقليات؟"

لو أن الذات العارفة (النفس البشرية) لا تستمد توجيهها وإرشادها إلا من العقل وحده لما كانت للمعرفة (الايستمولوجيا) مشكلة ولما اختلف الناس فى أمرها إذ أن جوهر العقل عند الناس واحد ومقاييسه الكلية ثابتة لا تتخالف كمركز لقياس كل شئ ومرجعية أى تحليل أو معالجة.

وإنما الثابت أن الذات العازفة تتعدد مصادر توجيهها ومحركات كيانها لتشمل ما لم يمكن حصره بداية من المعتقدات الدينية ومرورا بالعصبية بأشكالها وأنواعها، ودواعى الشهوات ومباعث الغرائز والأهواء، ووحى زدود الأفعال، ونهاية بمقتضيات المصالح المادية والمكاسب النفعية، الأمر الذى يحوج الإنسان إلى معاناة فى الفرز والتمييز بين نبع المعرفة التى هى العقل المتجرر الصافى وبين الدخيل من الشوائب والمؤثرات كافة.

ويحتاج ذلك إلى عمليات التطهير المستمرة من العوالق كما يحتاج إلى ترتيب معين فى الخطى وقطع المراحل كما يرى"البوطى" فمسائل العلم والمعرفة مترابطة ومرتبة من حيث المنازل، ومتدرجة من حيث الصعود والاتساع ومتنوعة من حيث البساطة والتعقيد، واقتضى ذلك كله ضرورة التزام نظام

معين لدى السير فى طريق المعرفة وتغذية العقل. فهل وجد طريق واحد للمعرفة وتغذية العقل عمَّ جميع البشر؟ وهل ثمة وجود لوحدة الوعى أو وحدة المعانى فى السياقات المختلفة بين الحضارات والمجتمعات؟ أجاب ريتشارد شويدر : أن الأنماط الفكرية تختلف باختلاف السياق الحضارى والاجتماعى لتشكل نمطا من الوعى أو العقل الجمعى حيث تشكل تجارب وحضارات الشعوب "الأفق" العام لتجربتها الخاصة وتمنحها معناها وشكلها الخاص بها . وفى هذه العملية الخاصة - عملية التجربة والإدراك والتفسير والتأريخ - تلعب اللغة أيضا دورا رئيسيا حيث تضفى على التجربة والإدراك بنية مسبقة فتجعلنا نرى العالم بضوء معين تحدده هذه البنية المسبقة. أى أن معنى الأشياء التى نلاحظها لا يتم إلا من خلال الأدوات التى نملك على حد تعبير كنيث جيرجن (Kenneth Gergen).

ولقد عرض شرابى بوضوح معنى نظرية "العقليات المختلفة" التى يقول بها شويدر. فعلى الرغم من أن ماهو عقلى هو بالضرورة شامل وكلى (أى يشارك فيه البشر جميعا) فإن اختلافات العقليات ينشأ نتيجة اختلاف الممارسات والتجارب التاريخية للشعوب، وليس نتيجة لاختلاف ما هو (عنصرى) فى تركيب الحضارات المختلفة.

أيهما أدوم العقل أم العلم؟

إن شيئا فى العلم لا يدوم، لكن يدوم العقل وإضافاته فلقد أثبتت التجارب أن العقل ليس مهيئا فقط لخوض خبرة الحياة اليومية بل أيضا لاقتحام الذرة وما دون الذرة واستكشاف طبيعة الفضاء الشاسع بما يحويه من تريليونات النجوم. وتتربع نظرية الكوانتم بمعية الكوزمولوجيا أو علم الكونيات على قمة إنجازات القرن العشرين ولكن أين يقع العقل ذاته فى هذا العالم الذى يصفه العلم؟ إنه يصف خلفية عديمة الحياة وحيث تنتقل الطاقة من جسيم لآخر، فلا يبدو فيها مكانا لكيان عقلى وياله من تناقض ! العلم يجعل من العقل

جوابا فى مثل تلك الآفاق الرحبة، بل وجوابا فى الشبكة العصبية للإنسان. لكن يظل العلم لا يمكننا من أن نجوب فى اقطار أصغر خبرة عقلية حية من قبيل إدراك روعة إصيص من الزهور القرنفلية.... إن العبور النهائى للهوة بين العقل والمخ هى مهمة ميتافيزيقية ولا بد أن نسلم القيادة ها هنا للعقل الفلسفى كى نتفهم أنفسنا ومنزلتنا وذلك حسب ما أكدته يمنى الخولى فى تحليلها المتعمق لكتاب ما وراء العلم لجون بولكين هورن.

المحركات الذهنية يملكها الجميع .. فلماذ تختلف نواتجها؟

بدى فى الأفق مؤخرا مصطلح المحركات الذهنية ضمن إطار المقارنة بين الأمم عقليتها وحضارتها، وتؤكد إشاراته إلى أنه لا يعنى الاختلاف فى طبيعة البنى الذهنية عند أمة إذا ما قورنت بغيرها بل يعنى الاختلاف فى تحريك وتفعيل هذه البنية - الموجودة أصلا لدى الجميع - بحسب خصوصيات تجربتها التاريخية، تبلورها وتناسقها لتشكل خزانا هائلا من الإيعازات والدوافع وأنماط التفاعل والتفكير الخاصة تتحكم فى مجال التأثير والفاعلية المميزة للوعى، وتشتمل مجالات المحرك الذهنى على متفرعات عدة فى حياة الإنسان تلتقى كلها عن إدراكه العقلى لأوجه الحياة كافة : الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاتصالية، والمحرك الذهنى من حيث طبيعته يعمل بوقود الأحكام والأفكار والتصورات لا بوقود المشاعر والانفعالات الصرفة عياره المفكر فيه وضابطه العقلنة.

وعلى الرغم من أنه لا توجد أطر نظرية متكاملة ونهائية فى موضوع المحركات الذهنية- ولم ينل من الشهرة ما نالته المحركات الجنسية عند فرويد، فإن الكتابات والدراسات تنبهت لأهمية المحركات الذهنية فى علاقة الثقافة بالتنمية، والاقتصاد والمجتمع، الدينامية الاجتماعية والثقافية والتغيير، ونظم التربية وأطرها الفكرية والأخلاقية، اذا لكل نظام ثقافى خلال

حياته كتلة متحركة تنشط وتعمل. وتنبع دينامية هذه الأنظمة من داخلها هى، من منطقها ومن تفاعل عناصرها فيما بينها لتنتج بنية عقلية خاصة فى تعاملها مع المعرفة مخزونا ومهارة وشبكة للفهم، الأمر الذى يمد الذات العارفة بكينونتها المبنية وبدورها البانى فى الآن عينه كما أكد معتوق وأفاض فى تناوله للمحركات الذهنية كمرتكز من مرتكزات السيطرة الغربية وعدد أوجه للمقارنة بين التعامل المعرفى فى الغرب وغيره من شعوب العالم. فالمعرفة موجودة عند جميع المجتمعات البشرية إلا أنه تختلف صيغ التعامل معها هل المعرفة الموروثة أم المعرفة المتوالدة والمطعمة بالمهارات والكفاءات الجديدة ، التعامل بشكل عقلى توليدى أو بشكل نقلى. التعامل بشكل سطحى عشوائى أم بشكل متناسق ومتفاعل مع الواقع ورأسمالاً علمياً يستثمر فى تطوير وتحسين ظروف وأطر الحياة. تحديد وظيفتها فى ترديدها فقط وعزلها أم انطلاقها إلى المجال العام لتمس كل شأن مجتمعى لا سيما فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، تثمير المعرفة بتجديدها على الدوام أم بتكرار المخزون بطريقة حلزونية، حتى وإن اكتسبت أوجها جديدة، واستثمارها فى دينامية التجديد أم مجرد مستودع للمنقول. كما من المعلومات ومجموعة من الحقائق أم معطيات ناتجة عن اختبارات قابلة هى أيضا للاختبار، فالموروث والمخزون الثقافى لا يعنى نفس الشيء بالنسبة لألمانى أو إيطالى أو تايلاندى أو عربى أو سنغالى. فالسياق الثقافى والخط المتواصل الذى عاشته مجتمعات البلدان العربية جعل من مخزون كل جيل من الأجيال السالفة فيها عنصرا يختلف كما ونوعا عما هو موجود عند مجتمعات الأرض الأخرى.

فكيف تتعامل العقلية العربية مع المعرفة بل ومع الواقع؟ هل يشكل العقل العربى بنية ساكنة لا فاعلة؟ هل الوعى العربى سجين هذه العقلية ولغتها القائمة على العاطفة والغلو والترديد؟ هل للدين علاقة بذلك؟ وهل يمثل حال المسلمين تكئة لاتهام الدين الإسلامى بالمسئولية عن هذه الحالة؟.

وإلى أى مدى امتد نسق المحركات الذهنية ليشكل نسق الثقافة العربية؟ لماذا تفشل كل مشروعات النهضة العربية؟ لماذا يعجز العرب عن تجاوز حاله الذى استمر طويلا؟ وهل أزمة البنية العقلية والثقافية العربية وليدة المخططات والمؤامرات الخارجية؟ الم تنجح أمم أخرى فى تحقيق الانطلاقة رغم انها مستهدفة من قبل تلك المؤامرات والمخططات حال وجدت؟ أم أن الفشل الذى منى به العالم العربى والإسلامى فى مشروعاته هو جزء من مكوناته الذاتية ومحركاته الذهنية وبنيته المعرفية وفضائه الثقافى؟ ألا يدعونا ذلك للبحث فى أهم الإشكاليات.

ما الإشكاليات الإبستمولوجية فى بنية العقل العربية؟

بعيدا عن جلد الذات ، أو الولع بما حققه الغرب من منجزات، أو الدعوة للتبعية أو التقليل من شأن حضارتنا الإسلامية؟ أو التنكر للإبداعات الفردية، أو تجاهل القامات العلمية والفكرية، وبدون حساسية وعلى البارد يجب الاجتهاد فى رصد الإشكاليات الإبستمولوجية لأن تجاهلها خروجا من حركة التاريخ وهروبا من الواقع وتخليا عن مقتضيات اللحظة وخطى المستقبل.

تصادم النظم

بوصف العقل العربى مكونا بالثقافة التى ينتمى إليها ويعمل هو على إعادة إنتاجها من خلال القواعد والمحركات التى تحكم فاعليته وتشكل فى الوقت ذاته القاعدة الإبستمولوجية رصد الجابرى ثلاثة نظم معرفية متصادمة فى الثقافة العربية منذ بداية تشكلها هى: النظام البيانى: يكرس رؤية للعالم قائمة على الانفصال واللاسببية ، وقوام منهجه فى إنتاج المعرفة قياس الغائب على الشاهد أو الفرع على الأصل ويعبر عنه العلوم العربية الخالصة (النحو - اللغة - الكلام والبلاغة).

النظام المعرفى العرفانى (الغنوصى) ويكرس رؤية للعالم ومنهجا فى المعرفة قوامه المشاركة والاتصال الروحانى المباشر بالموضوع والاندماج معه فى وحدة كلية ويعبر عنه (الفكر الشيعى الفلسفة الإسماعيلية خاصة – التصوف – الفلسفة الفيضية وكل التيارات الإشراقية وعلوم التنجيم والسحر وانتقل إلى العقلية العربية من الموروث السابق على الإسلام.

النظام المعرفى البرهانى جاء مع الترجمة. رؤيته للعالم مبنية على الترابط النسبى ومنهجه فى إنتاج المعرفة يقوم على الانتقال من مقدمات يصنعها العقل إلى نتائج تلزم عنها منطقيا. وتداخلت هذه النظم وتصادمت فى البنية العربية وكرسها الصراع الأيديولوجى/ السياسى على امتداد* التاريخ وأسهم ذلك فى:

- تكوين بنية عقلية مفتوحة مطاطة فقدت رقابتها الذاتية مما جعلها تتسع لكل التصورات والرؤى اللانمطية وتمنحها تبريرها بتأويل الجانب الغيبى فى الدين تأويلا سحريا (يعنى التأويل الذى يقوم على إنكار السببية والإتيان بالخوارق).
- عمليات التوفيق المعروفة بين النقل والعقل، بين الفلسفة والدين كمحاولة لإيجاد ثقافة موحدة ينتج عنها تكريس مقولات ومفاهيم وتصورات متناقضة متناحرة داخل ساحة واحدة.

وانتهى الصراع والتصادم بين تلك النظم المعرفية الثلاثة بانتصار العرفان كنظام معرفى مؤسس لأيديولوجية سياسية أو دينية تريد تبرير وتكريس واقع معين وكبديل لكل نظام معرفى آخر.

وبمساعدة الأمية اكتسحت الصوفية. فكانت الربط ومشايخ الطرق فاعلة فى الأطر الاجتماعية والسياسية، وكرست العلاقات الشخصية فى التقدير والحكم والتصرف، وأسهمت خصوبة البيئة لتسويق الشعارات التى تقدم الحلول دون معاناة فى التفكير، فأصبحت السياسة لا العلم هى العنصر المحرك

مما جعل البنية العقلية (عقلا – فكرا - ثقافة) يخضع لتقلبات السياسة ويتأثر بنجاحها وإخفاقها.

الا يفسر ذلك لنا طرح المشاريع الاشتراكية - الرأسمالية - التيارات الإسلامية وفشلها فى ذات الوقت؟ هل تغير ذلك حتى بعد ما يسمى بالربيع العربى.

تصادم المحركات

تصر العقلية العربية دوما على أن تخلق صداما بين القديم والحديث، بين الماضى والحاضر، بين المحلى والعالمى. معرفيا عبرت عنه الكتابات بمترادفات: (التوترات – التناقضات - الأصالة والمعاصرة) وهى فى مجملها تشير إلى إشكاليات ايستمولوجية تمس كنه المحركات الذهنية فى تحديد البوصلة أو القبلة إن جاز التعبير، ومما يضفى عليها صبغة التصادم حالات الاتهام ومحاولات الإزاحة التى أطرت نمط العلاقة بين الرؤى المعرفية: حيث رؤية تتهم كل جديد بأنه تسمية أجنبية وأفكاراً مستوردة تنال من اصالتنا، ورؤية تعتبر ما سبق جمودا فكريا، وانقطاعا عن روح العصر، وعيادة للماضى، ورؤية ثالثة تتهم الإثنين بالأحكام القطعية فى اتباع مصدر معرفى واحد، والقطيعة المعرفية مع المصدر الثانى، وتقدم محركا معرفيا يأخذ من الاثنين: ما يقدمه العالمى الحديث وما قدمه الماضى المحلى الموروث. **وثمة تساؤلات حول طبيعة تلك المحركات:**

ألم يكن تحديد التوجه أمرا أيديولوجيا وليس معرفيا؟ ألم تلتقى الرؤى الثلاث على ساحة التقليد إما للسلف وإما للغرب أو الاثنين بمقدار ما؟ ألم يعكس ذلك نوعا من التمزق فى الوعى أساسه الهيمنة لأية رؤية تتسيد؟ ورغم طول الزمن الذى استغرقته هذه الإشكالية هل قدمت أى من الرؤى الثلاث

نتاجاً يعبُر بالوعى العربى من عقبات الحاضر إلى مشروع فى المستقبل أم أنها افتقدت المعرفة الصحيحة بالواقع والنسق المعرفى اللازم لتجاوز الإشكالية؟

الأسطورية

ليس المقصود الأسطورية بمعناها الذى ينصرف إلى الخرافة بل بمعناها الذى يشير إلى البنية الرمزية المعبرة عن النسق المعرفى فى المجتمع، وبهذا المعنى فإن الجانب الأسطورى قابع فى كل ثقافات الأمم بمقادير متفاوتة أما وإن يعبر عن منهجية فى التفكير ، يتناقض مع الواقع ، ويتنافر مع المنطق، ويتجاهل حكمة العقل فى تفسير الأبعاد كافة (سياسية – اقتصادية – اجتماعية – تربوية...) فإن الأمر بحق يعبر عن إشكالية ايستمولوجية لأنه لم يتوقف عند حدود السائد فى وعى الأمم أو لدى فئات معينة من شعوبها فما كان له أن يحكم ويتحكم فى المفاهيم والوعى والممارسة، ويظهر على مختلف المستويات ويضرب بجذره فى مختلف المجالات ما لم يمس البنية العقلية أو المحركات المعرفية؟

ألم يميل الوعى العربى الجمعى إلى الإعجاز أكثر من ميله إلى العلم؟ ألم تميل الثقافة العربية إلى الدين فيما هو تسليمى أو استسلامى أكثر من ميلها إلى المنحى التحريرى أو التحريكى فى بعض الخطابات الدينية؟

ألم تشبع البرجوازية العربية هذا النمط من الوعى لدى الطبقات الشعبية فيسهل تخويرها والسيطرة عليها؟ ألم تتحكم الأطر المينولوجية فى الفكر والسلوك عند الإنسان العربى فى كثير من مواقفه اليومية والحياتية (الولد – الزواج – المرأة – السلطة – الحياة – الموت – المصير – المستقبل) ؟ حيث تتغلل الرواسب الأسطورية.

وعلى مدى العقود الماضية وحتى السنوات الأخيرة ألم نجد من المفكرين المحترفين من هم مستعدون دائما لإلباس كل خرافة سياسية أو فكرية أو

اجتماعية أو حتى اقتصادية ثوبا علميا أو فلسفيا هزيلا مستغلين المحرك العاطفى لا المعرفى ومستثمرين نمط الوعى السائد؟

إن خطورة انتشار الأساطير وغياب التفكير المنطقى والروح النقدية لا تتمثل فى نوعها أو حجم انتشارها بقدر ما تمثله منهجا للحياة لتصبح إشكالية لا تعوق فقط إنتاج المعرفة أو التعامل معها بإبداع وإنما تكرس أنماطا من الوعى مناهض لأى تنمية أو نهضة أو رقى مستقبلى.

إشكالية المصطلح: القفز فوق أسطح المعانى

تنتج المعرفة أجهزة اصطلاحية سواء على صعيد التنظير أو الممارسة ويترتب على ذلك نوعا من المواءمة أو التأصيل حول المصطلحات والمفاهيم بما يتفق والبنية الحضارية الثقافية من ناحية، وشروط حقل المعرفة من ناحية ثانية، وحاجات التلقى والاتصال بالحضارات الأخرى من ناحية ثالثة.

ويما أن المعرفة تمثل خلاصة الممارسات العقلية للإنسان، وتتشكل ضمن أطر ثقافية وحضارية محددة وتدخل فى علاقة تعاطى أو مثاقفة مع أطر أخرى ثقافية وحضارية لذا يظل السؤال مطروحا حول المعنى الجوهرى، وتطورات البناء العلمى للمصطلحات والمفاهيم وانضباطها فى مواقع استخدامها على المستويات كافة. ولطالما ندد المفكرون ورموز الثقافة بتجذر إشكالية المصطلح فى الحالة العربية سواء على مستوى المصطلح أو المفاهيم، خاصة بعد التشابك والتداخل الحادث بفعل المتغير المعلوماتى وعددوا مظاهر كثيرة لإشكالية المصطلح من أبرزها اضطراب دلالة المصطلح، وتعارض المفاهيم ، وشيوع الغموض فى التراسل العلمى بين مصادر المعرفة وجهات التلقى، وشحن المصطلح القديم بدلالة مغايرة لأصل دلالته، ونقل مصطلح ذى دلالة محددة من الثقافة الغربية دون مراعاة لخصائصه التى اكتسبها فى بيئة المنشأ، وإضفاء دلالات جديدة على المصطلح الذى أنتجته الثقافة العربية فى الماضى تعمل على انتزاعه من

حقل معرفى لتستعمله فى حقل معرفى آخر دون أن تراعى خصائصه فى حقله الأصل مما أصاب المصطلح ومفاهيمه وممارساته وإجراءاته. الأمر الذى أسهم فى كثير من حقول المعرفة إلى ممارسات تفتقر إلى المقومات العلمية فى ضبط المصطلحات وتحديدها.

فكم تلمس بالحس النقدى عدم الاتفاق على بنية المفهوم داخل جماعة علمية واحدة ؟ وهل تلاحظ اختلاف الصورة الذهنية لدى أبناء تخصص واحد تجاه مفاهيم عديدة؟ ألم تنشب خلافات حول الدلالات المفاهيمية حيث يجب الاتفاق؟ ألم تبوح الأصوات أحيانا والكتابات بتسطيح المعانى الجوهرية للمفهوم؟ ألم نلمح فى بعض الدراسات تعريفات تعد قفزا فوق أسطح المعانى الجوهرية للمفهوم؟

الثنائيات

تتجسد مظاهرها فى ثنائية العلاقة بين الدين والدولة - ثنائية التعامل والعلاقة بين الرجل والمرأة ، ثنائية الفكر والسلوك ، ثنائية التعامل مع الحضارة العربية وتقاليدها والحضارة الغربية ومستلزماتها ، الثنائية فى العلاقة بين العامية والفصحى - أجهزة الإعلام والمؤسسات التعليمية، الثنائية فى الاعتبارات التى تفرضها المقاييس القبلية ومقاييس العصر، ثنائية لغة التفكير ولغة الحديث ، العقل والنقل ، ... فكيف تؤثر مصفوفة الثنائيات تلك على المحركات الذهنية للعقلية العربية ؟ وماذا تضيف إلى أزمة بنيتها ؟ ألم تمثل شوائب ومؤثرات إضافية تنال من صفاء العقل ودوره المعرفى ؟ ألم ينتج عنها شلل فى الإرادة، والعجز عن الإقدام المعرفى؟ والقصور فى المواجهة المعرفية مع الواقع وأحداثه؟

يضاف إلى ذلك إشكاليات أخرى لا يتسع المجال للاستطراد فى طرحها مثل: المثالية التى تعبر عن الخلل المعرفى بين الممكن والواجب، التطلع والإمكانات، ما يُطرح من مشاريع وتردى الواقع. الأحادية التى تجسد منطق

التعالى كما فى الخطاب السياسى القومى ، والدينى الطائفى، والأدبى والتربوى ، وتتجسد أيضا فى إضفاء صفة الفرادة والتفرد على بعض الأحداث ورفعها إلى مستوى الحدث المتسامى الذى لا يتكرر، واختزال الحياة والساحات والمؤسسات فى رموز وأفراد فمثلا الأسرة فى شخص الرجل ، وحياتنا السياسية فى زعيم أو مجموعة من الزعامات ، والمؤسسة فى مديرها، و ... مما يؤدى إلى استفحال ظاهرة الفردية وغياب التفكير المؤسسى وتكريس العصبيات، والتبريرية، والماضوية كإشكاليات ايستمولوجية

التداعيات التربوية للإشكاليات الايستمولوجية

إن تفاعل الإشكاليات الرئيسية سالفة الذكر وغيرها من الإشكاليات الفرعية التى تعانى منها البنية المعرفية مع التحديات والمتغيرات العصرية تشكل التضاريس والمناخ السائد الذى ينعكس على النظم كافة لاسيما النظم التربوية بحكم ما بينها من وشائج الترابط والتداخل فالبنية المعرفية والثقافية هى التى تغذى آليات الفعل التربوى وتشكل قوامه الفكرى والخلقى وفى ذات الوقت تمثل التربية الوسيط والعامل الموجه والأداة الفعالة للتنمية أو إعادة الإنتاج نفسه .

فى سياق متصل ثمة تداعيات تربوية للمناخ العربى السائد رصدته العديد من الدراسات والأدبيات الثقافية والتربوية لا يمكن حصرها فى مثل هذه الورقة ولذا تطرح الوعى كمؤشر لهذه التداعيات لأنه الأكثر تعبيرا عن المشهد والأوثق ارتباطا بتلك الإشكاليات .

الوعى

الاشتراك فى المعنى بين الثقافة والمعرفة مرده إلى أن كليهما يحمل معنى الوعى على اختلاف زواياه النفسية والفلسفية والاجتماعية والثقافية والتربوية حيث الإشارة إلى استيقاظ الذهن الإنسانى - الانتباه الانتقائي -

الاهتمام وعدم الاهتمام. المعرفة أو الفهم أو الإدراك التى يمتلكها أو يبديها الشخص - المجموع الكلى للعمليات الذهنية التى تحقق إدراك الإنسان للعالم الموضوعى ولذاته ليصبح الأنا منظم العالم وخالقه كما يذهب (بيركلى - لا بيتز - كانط - فخته - هيجل - هوسرل - هايدجر سارتر) فالعالم ليس الكون بل كل ما يواجه الوعى، وما يخلقه هذا الوعى هو الذى يأمر ويؤسس ويقيم فالعالم يولد مع كل وعى ويموت معه .

وعليه فإن تمثل الشئ وإدراكه وتكوين صورة ذهنية عنه تؤسس نوعا من الفهم له، وقدره على ترتيب وتنظيم العلاقة بين عناصره بشكل يزيل الغموض والاستغلاق عنه ويحقق الوضوح الذى يمثل مطلب الوعى ، ويتوقف هذا المطلب على نوع تعليل الظاهرة محل الإدراك ، ويتقرر نوع وخصائص الوعى بنوع التعليل وهكذا جاز وصف الوعى بأنه ميتافيزيقى كلما أسندت الظواهر إلى علل فوقية، أو أنه وعى مادى كلما أسندت الظواهر فيه إلى علل مادية ، أو وعى خرافى / أسطورى كلما قامت الحوادث على أصول تستعصى على السببية والتعليل ، أو وعى أيديولوجى كلما اسندت فيها الأشياء إلى عوامل المصلحة الذاتية بعيدا عن الأخذ بقواعد الموضوعية .

وتتداخل المدركات والممارسات وتتلازم لتنظيم العلاقات بهذا العالم على نحو تتحقق فيه إرادة الوجود ليصبح الوعى شاملا لمستويات ثلاثة : الإدراك الذى يمثل شكلا من أشكال التعبير عن حاصل صلة الوعى بمكونات ذلك العالم . والتكييف للعالم وإخضاعه وإعادة بنائه ويعبر هذا المستوى عن آلية الإرادة حيث تتسع دائرة المدرك لتتصل بدائرة الأفعال والممارسات لتتلقى وترد وتنتج أى تعى وتتفاعل وتفعل .

ومن ثم تصبح المؤسسات التربوية وما تضمه من معلمين يمتلكون خصائص معينة ذات تأثير مباشر على مكتسبات الطلاب .

فماذا عن وعى المعلم العربى ؟ وهل ينال الوعى القدرالمناسب فى فترة إعداد المعلم ؟ أو يمثل ركنا من أركان تنميته المهنية ؟ وكثير من التساؤلات تفرض نفسها عن قضايا تمس الإعداد والتدريب واختيار المعلم ، فهل يدرك المعلمون العرب التحديات المعرفية والثقافية ؟ ما حجم الفراغ الذى ينشأ بين النظرية والتطبيق فى الإعداد الثقافى للمعلم ؟ هل يلتحق كل المعلمين بالعمل بمفاهيم واضحة ومعتقدات متوافقة ؟ كم من معلم تكون وعيه حسب مسارات فكرية لا تتواجد بالضرورة داخل أسوار الجامعة؟

لقد لخص كل من Beįaard، Douwe،Yunne خطور هذه التأثيرات الثقافية التى تشكل معتقدات المعلمين فى أنها تتسم بطابع فردى وشخصى قوى يميل إلى الاستمرار وتعبر عن فهم المعلم للواقع بما يكفى لتوجيه فكره وسلوكه وأدائه المهنى ، وتتكامل فى أطر عقلية لتصبح وسيلة لتفسير المعرفة الجديدة وتميز خصائص وعى المعلم فى التواصل داخل الفصل والمدرسة.

ألم تتحول رؤية المعلم للأوضاع (من السياسية حتى المذهبية) إلى مواقف تربوية معينة ؟ ليصبح وعى المعلم معيارا يتحول به الثقافى إلى طبيعى والماضى إلى الحاضر والحاضر إلى مستقبل .

فى دراسة ميدانية أجراها الباحث عن خصائص وعى المعلم العربى أشارت النتائج إلى أنه من أبرز الخصائص التى تغلب على الوعى الثقافى للمعلم العربى : (الأحادية - التشوش - التآمرية - العجز والنمطية - القولية - الماضوية - الانغلاق - المذهبية - القمع.) فماذا عن وعى طلابه؟

إن العقيدة الدينية لا سواها هى التى تمنحنا إجابة متسقة مترابطة ومشبعة للعقل ، الواقع هكذا لأنه مخلوق، وخلف نظام الكون ، وخلف الخبرة الإنسانية بالجمال ثمة غبطة الخالق بفعل الخلق ، وخلف حدوسنا الأخلاقية ثمة مشيئة الله وكماله المطلق ، لكل ذلك لا يتحرج بولكين هورن من المجاهرة

باعتقاده فى أن نظرية المجال الموحد الذى يطمح إليه الفيزيائيون لتضم النظرية التسببية ونظرية الكوانتم معا هى النظرية الشاملة لكل شئ حقا. وأن الإيمان بالله هو الذى يهبنا إياها.

ويقول ابن مصباح إذا كانت العقول تتكامل فى صناعة العلوم فإن القلوب تتفاضل فى صياغة الفهوم ، وما عصم الله عقلا من التقصير والزلل ولكن بالتقوى يحصن سبحانه القلوب من العلل فلا تقبل من ضرر بعلم ولا خلل، فهلا فهمنا إسلامنا على النحو الذى تكمن حكمة الخالق فى صلاحيته دينا لكل زمان ومكان؟ وكيف ندرك جوهره كنبع معرفى وبانٍ للوعى اللازم للتعامل مع تجدد المعطيات وتغير الظروف؟ وكيف نترجم ذلك إلى آليات فعل تربوى لينتج إنساناً عربياً تمتد جذوره فى عمق هويته ويتعامل بأفق رحب ومحرك معرفى صافى مع آفاق العصر؟ هذا هو التحدى المطروح على العقلية العربية والآفاق التربوية.

المراجع

خالد قطب، فلسفة العلم التطبيقية: الفلسفة تبحث عن آفاق جديدة داخل العلم، سلسلة كراسات، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ٢٠١١.

عبد الاله بن مصباح، ونحن نؤسس لعالم حضارى، حراء، مجلة علمية فكرية، العدد ٣٩ السنة التاسعة- نوفمبر- ديسمبر، ٢٠١٣، اسطنبول.

عبد المنعم نافع، تحديات وإشكاليات التنمية الثقافية، دراسة ميدانية فى خصائص الوعى الثقافى للمعلم العربى، المؤتمر العلمى لقسم أصول التربية كلية التربية - جامعة الزقازيق، التعليم والتنمية المستدامة ١٠٢- ١١ مارس ٢٠٠٤.

فردريك معتوق، مرتكزات السيطرة الغربية: مقاربة سوسيو- معرفية، المجلس الأعلى للثقافة، المطابع الأميرية، القاهرة، ٢٠٠٩.

محمد عابد الجابرى، إشكاليات الفكر العربى المعاصر، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، ١٩٨٩.

هشام شرابى، النقد الحضارى للمجتمع العربى فى نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠.

يمنى طريف الخولى، ما وراء العلم .السياق الإنسانى الأرحب، سلسلة كراسات، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ٢٠٠٠.